دور خير الدين بربروسا في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر

بقلم
د/ محمد السعيد عقيب
قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الوادي ـ الجزائر

ملخص

لعب خير الدين بربروسا دورا هام في تأسيس إيالة الجزائر العثمانية، فبعد انقضاء المرحلة التمهيدية التي بدأت باستنجاد أهل الجزائر بأخيه عُروج الذي كان يرأس المجاهدين الأتراك الذين يتصدون للسفن الأوروبية في البحر المتوسط، عندما ذاع صيتهم كمدافعين عن المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبعد استشهاد عروج تحمل خير الدين مسؤولية قيادة الأتراك العثمانيين في الجزائر، وواجه في سبيل تثبيت الوجود العثماني في شمال إفريقيا العديد من المصاعب، ورغم ذلك فإنه استطاع بذكائه وقوة شخصيته وشجاعته التصدي لها، وأفلح في إنشاء بكلربكية مقرها مدينة الجزائر. وفي هذا المقال ستتعرض لشخصية خير الدين، وكيفية قدومه للجزائر، والدور الذي لعبه في تثبيت أقدام العثمانيين بها.

Résumé

Kheir-Eddine Barberousse a joué un rôle très important dans la fondation de la régence ottomane d'Alger. Après la première étape, quand Arroudj, le chef des moudjahidines turcs, a répondu à l'appel de secours lancé par les habitants d'Alger face aux armadas européennes. Et après la mort de celui-ci, c'est Kheir-Eddine qui a porté la responsabilité et c'est lui qui a dirigé le gouvernement turc à Alger. Donc, il a réussi à installer la présence ottomane en Afrique du Nord, malgré toutes les difficultés. Et, c'est par son intelligence, son courage et par sa personnalité charismatique, qu'il a pu établir cette régence dont la capitale été Alger. Dans cet article, nous allons discuter autour de la personnalité et le caractère de Kheir-Eddine, et de sa venue en Algérie et de son rôle dans installation des Ottomans en Algérie.

مقدمة

عرفت منطقة المغرب الإسلامي خلال القرنين 15 و16 الميلادي حملات أيبيرية متعددة، شملت أغلب المناطق الساحلية الممتدة من المغرب الأقصى حتى طرابلس الغرب، وازدادت حدتها وشراستها إثر تساقط الدويلات الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، ويُعد سقوط غرناطة عام 1492 خاتمة هذه الدويلات، وكانت منطقة المغرب الأوسط من بين المناطق التي قصدها هؤلاء الفارين من كيد المسيحيين الأيبيريين ومن تنكيلهم.

وكان المغرب الأوسط حينها يعيش ظروفا سياسية متدهورة لانقسام رقعته بين أطراف متعددة فأجزاء من الشرق تابعة للحفصيين، وتلمسان تحت رحمة الدول المتعاقبة على المغرب الأقصى، والحواضر والمدن الكبرى كل بها إمارة تابعة لقبيلة من القبائل الكبرى المستقرة بها.

أكثر من هذا فإنه مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي استطاع الأسبان السيطرة على عدد من سواحله، كبجاية والجزائر ووهران وغيرها، فذاق أهلها الضنك والجور من قبل هؤلاء الغزاة، وفي تلك الفترة كان الإخوة عروج وخير الدين بربروسا تتصاعد أصداء انتصاراتهم شيئا فشيئا لما ألحقوه من خسائر بسفن المسيحيين المارة بالبحر الأبيض المتوسط، فأدى ذلك للاستنجاد بهم من طرف سكان بعض المدن الجزائرية، وعلى رأسها مدينة الجزائر، التي استغاث أهلها بالأخوة بربروسا فانجدوهم.

وكان على رأس الجنود الأتراك الذين قدموا مدينة الجزائر القائد عُروج، وبعد أن استقروا بها أخذوا يدعمون نفوذهم بالتوسع في المغرب الأوسط شرقا وغربا، وكان من نتائج هذا العمل استشهاد عروج سنة1518 أثناء حملته على تلمسان، فخلفه أخاه خير الدين على رأس الجنود الترك الموجودين بالجزائر، وبهذا بدأت خطوات خير الدين في تولي بكلربكية الجزائر.

فمن هو خير الدين بربروسا؟. وكيف وصل إلى الجزائر، وما هي أساليبه ووسائله التي مكّن بها للوجود العثماني بالجزائر؟.

في هذا الموضوع سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة لنُظهر مدى الدور الذي لعبه خير الدين بربروسا في استقرار العثمانيين بالجزائر، واتخاذها جبهة متقدمة في الصراع الإسلامي

– المسيحي، من أجل السيطرة في البحر الأبيض المتوسط.

1– شخصية خير الدين بربروس:

يعود أصل خير الدين إلى جزيرة مدللي " Médelin " أو" Mételin "وهي إحدى جزر اليونان، والتي تسمى قديما جزيرة ليسبوس، وكان ميلاده في حوالي سنة 1483 م، وتوفي في 953هـ الموافق سنة 1546م، ودفن بجهة بشكطاش على شاطئ البوسفور عن عمر يناهز 63عاما[1].

أبوه هو يعقوب بن يوسف الذي نشأ في الأناضول ثم أصبح سبايهيا، شارك في عهد محمد الفاتح في فتح جزيرة مدللي، تزوج من فتاة رومية، فولدت له أربعة أبناء هم: عُروج (أوروج) وخير الدين أو خضر (خسرف) وإلياس وإسحاق، وبنتان، وقد عمل يعقوب على تربية أبنائه تربية حازمة[2].

واستطاع الأب أن ينشأهم نشأة إسلامية غيورة على دينها فكان لهم من الجرأة والشجاعة ما لفت العالم في عصرهم، أما اسم خير الدين فقد اقترح فضلاء الأندلسيين والمغاربة على خسرف أن يغير اسمه، وأطلقوا عليه اسم" خير الدين "، كما كان يسمى خضر أو خذر و بارباروس -Barberousse– التي تعني ذو اللحية الشقراء، وشمل اللقب كل من عروج وخير الدين، وأصبحا مصدر رعب وفزع في بلاد النصارى المحاذية للبحر المتوسط[3].

أظهر هؤلاء الإخوة منذ حداثة سنهم استعدادات عجيبة لممارسة القرصنة – الجهاد البحري– ومات إلياس أثناء القيام بهجمة واضطر عروج إلى أن يجدف في مراكب فرسان القديس يوحنا، ولا يعرف كيف تخلص من الأسر ولا لأي سبب غادر الأرخبيل اليوناني، مع أخويه واختار الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين من سنة 1504 إلى سنة 1510 لما اشتهر به من سطو على مراكب النصارى وخاصة الاسبانية منها وبفضل ما حققه من إنقاذ آلاف الموريسك ونقلهم إلى بلدان المغرب الإسلامي[4].

كما امتاز هؤلاء الإخوة بالشجاعة ومعرفة علوم البحر، مما جعلهم مهابي الجانب في

البحر الأبيض المتوسط، ووضعوا أنفسهم تحت خدمة سلطان استانبول حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطئ اسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس على الهروب من هذه الجزيرة، وكانوا يملكون حوالي 1000 رجل جاعلين من الجهاد البحري(القرصنة) حرفة لهم.[5]

اختار الأخوان الانحياز إلى القناعات التي كانت لدى والدهما وصارا يعملان لصالح الخلافة العثمانية عن قناعة واختيار، وباشرا الجهاد البحري مع تزايد هذه الحركة في البحر المتوسط، وتضاعف الغزوات الأوروبية على سواحل شمال إفريقيا لمطاردة المسلمين الأندلسيين، الفارين من جحيم التعذيب والمتابعة ومحاكم التفتيش التي وضعها الأسبان ضد المسلمين، فحمل الإخوة بربروسا لواء الجهاد ضد الغزاة الملاحقين للأندلسيين، والمنادين بحروب الاسترداد.

كان خير الدين مربوع القامة غليظ البنية جسيما شيئا ما ضخما في كبر سنه، كان جاحظ العينين ضعيف البصر ألثغ[6]، لكن لا يُظهر لثاغته، أشقر اللون كث اللحية وأشقرها يحسن عدة لغات منها: اليونانية التي هي لغة آبائه، والتركية والعربية وشيئا من البربرية، والايطالية والاسبانية والفرنسية[7].

إضافة إلى هذا فإن خير الدين كان رجل دولة ، حيث كان سياسيا ماهرا، وكان رجلا يتمتع بشخصية جذابة إذا اقتضى الأمر، ولكنه كان أيضا ممثلا مخيفا لعصره باعتباره حاكما غليظا إذا اقتضى الأمر ذلك أيضا، كما أن خير الدين كان زعيما مسلما ورعا يرى أن إعادة فتح اسبانيا هدفا هاما للإسلام، ويبدو أن هذه التجربة قد أقنعت خير الدين بأن إعادة فتح اسبانيا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أصبح المغرب كله تحت سلطة إسلامية واحدة وهي السلطة التي سيكون بإمكانها تجييش جيوش العودة إلى الأرض الاسبانية، وإذا كان عروج هو المؤسس الحقيقي لجماعة القرصان- الجهاد البحري- فإن خير الدين هو الذي كان السياسي الماهر والمنظم العسكري والقائد الذي أسس الايالة الجزائرية التركية[8].

هكذا فإن خير الدين ولد في ظروف جد ملائمة سمحت له بأن يكون ذا مكانة هامة في إحدى الجزر اليونانية وهي مدللي، كان هناك اختلاف في تاريخ ولادته، وهو الابن

الثالث ليعقوب الذي كان جنديا في الجيش العثماني، وعلى الأرجح أنه تركي مسلم مكث في تلك الجزيرة مدة طويلة مما أدى به إلى الزواج، و ستؤثر الأعمال التي اشتغل بها رفقة إخوته من التجارة إلى العمل في البحر عليه وعلى إخوته ايجابيا، خاصة في نمط حياتهم الذي ساهم الأب فيه بدرجة كبيرة من خلال تمكنه من تربيتهم تربية حسنة ذات صبغة إسلامية، ولقد تشابكت العديد من العوامل في سبب تغيير اسما خسرف إلى خير الدين، والعامل الأهم هو أعماله البحرية الكبيرة التي قام بها، خاصة إنقاذ مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة ومطاردة المسلمين منها ومن كل المدن التي تهاوت بيد الأسبان، بحيث صار يسمى بخير الدين بروبروس نتيجة لمكانته ودوره الكبير.

2- قدوم عروج وخير الدين الجزائر والمصاعب التي واجهته:

نتيجة لعدة أحداث ووقائع شهدتها منطقة المغرب الأوسط أدت إلى بروز الإخوة بربروسا بداية، ثم تفرد خير الدين بالمكانة في الجزائر كقوة فاعلة، وقد ساعدته الظروف في الوصول ليكون على رأس بكلربكية الجزائر الناشئة.

فبفعل الانتصارات التي حققها الأخوان عروج وخير الدين في البحر المتوسط انتشر اسمهم في جميع سواحل الشمال الإفريقي متموجا بالفرح والسرور، خاصة وأنهم استطاعوا أن يكونوا قاعدة بحرية لهم في حلق الواد بتونس أصبحت منطلقهم في مهاجمة السفن الاسبانية(9).

وكان أول نداء وجه لهما سنة 1512 م من طرف علماء وأعيان أهل مدينة بجاية لإنقاذهم من الغزو الاسباني، فتشاور عروج مع جنوده ورجاله، وقرر بعدها الاستجابة للنداء والتوجه إلى بجاية، فسافر لها وأرسى بقربها (10).

وكان عروج يملك حينها أربع سفن، ووجد حاكم بجاية بانتظاره ومعه حوالي 3000 شخص، وأثناء تحرك عروج إلى بجاية شوهد من قبل الأسطول الإسباني فبدأ بتعقبه وملاحقته، فتصدى عروج لسفن الأسبان بكل شجاعة، وتمكن من إغراق واحدة بالمدافع، وأسر اثنتين، وفرت السفن الباقية، وبعدها نزل مع 50 مقاتلا وبعض المدافع وعلى الفور

باشر بقصف الاستحكامات الاسبانية، ومن ثم هاجم القلعة، وبعد ثمان أيام فتح ثقبا في جدارها، لكنه أثناء ذلك سقطت عليه من القلعة قذيفة أصابته في ذراعه الأيسر فجرحته جرحا بليغا، فأسرع رفاقه ونقلوه إلى السفينة، وانسحبوا راجعين إلى تونس، ولم يشف جرح عروج مما أدى قطع يده[11].

أما خير الدين فلشدة تأثره وحزنه على إصابة أخيه، تجول في البحر باحثا عن سفينة للأسبان، وما أن قطع مسافة حتى صادف سفينة صغيرة في طريقه، فألقى القبض عليها، ونظرا لقلة أهميتها أرسلها مع أخيه المجروح إلى تونس، وتابع طريقه مبحرا من تلقاء نفسه، فهاجم منورقة [12] التابعة لجزر البليار، واحتل بعض الأبراج، ودمر وخرب عدة قرى هناك كما شن هجوما على أميرال كورسيكة وتمكن بسفنه الثمانية من إلحاق الهزيمة به[13].

وبالرغم من فشل عروج في طرد الأسبان من بجاية فإن سمعته في الجهاد البحري كانت على درجة كبيرة من الأهمية أرهبت الأعداء، فطلب أهل جيجل من بابا عروج القدوم إليهم لتخليص مدينتهم من الجنويين، وبعد مشاورة مع رجاله استقر رأيه على مهاجمة جيجل والسيطرة عليها واتخاذها قاعدة لتحرير باقي سواحل المغرب الأوسط وتمكن من ذلك سنة 1514م.

ومن جيجل انطلق نحو بجاية محاولا تخليصها من الأسبان وذلك عام 1514، لكنها ظلت مستعصية على التحرير النهائي لما لها من القوات الاسبانية المتحصنة فيها بكل قوة، فتأخر تحريرها حتى سنة 1555م، على يد صالح رايس، الذي استطاع دخولها في 28 سبتمبر من السنة المذكورة، بعدما ألحق الهزيمة بالحامية الاسبانية وأجبرهم على الاستسلام[14].

ولقد لفتت الأعمال التي كان يقوم بها الإخوة بربروسا أهل مدينة الجزائر الذين فرض عليهم الأسبان معاهدة مذلة، إثر استيلائهم على بجاية سنة 1510، فذهب سالم التومي بصفته شيخ مجلس الأعيان متوجها إلى بجاية لإعلان ولائه للقائد الاسباني " بيدرو نافارو"–Bedro Navaro - فطلب منه هذا الأخير دفع ضريبة باهظة وإطلاق سراح كل

العبيد المسيحيين الموجودين أسرى في يد سكان المدينة، وكذلك فرض بناء قلعة (حصن البنيون) على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر، وتقديم فروض الطاعة والولاء أمام الملك الاسباني فرديننادو[15].

نتيجة لهذه المعاهدة المذلة كان أهل الجزائر يتحينون الفرصة المناسبة للتحلل من تبعاتها، فوجدوا في الإخوة بربروسا المنقذ فأوفدوا عدة شخصيات بارزة منهم لإقناعهم بالقدوم لتخليصهم من مضايقة وظلم الأسبان وتهديم القلعة الجاثمة مقابل المدينة تراقبها.

فقَبل عروج وخير الدين هذا الطلب ورأوا فيه فرصة للسيطرة على مدينة الجزائر الهامة والمناسبة، فأعد عروج لذلك حملة اختلفت الروايات في قوامها من الجند والسفن، وذلك سنة 1516، وهناك من ذكر بأنها تكونت من 16 سفينة صغيرة، تحمل على متنها 500 جندي، وعتاد حربيا، وهناك حوالي 800 جندي قدموا عن طريق البر، مع عدد ممن يساندهم من أهل جيجل وممن استطاعوا ضمهم إلى صفهم[16].

وعند قربه من الجزائر اختار السيطرة على شرشال أولا، وكانت تحت سيطرة حسن قاره، ثم دخل مدينة الجزائر، وحاول التخلص من الحصن المقابل لها بمن فيه من الجند الأسبان لكنه لم يفلح في ذلك لضعف عتاده العسكري، فحاول البعض من أعيان المدينة التخلص من الأتراك، لكن عروج قتل الفتنة في مهدها بقتل شيخ المدينة سالم التومي، فتمت له السيطرة على الجزائر، فاستقر بها وقضى على المتمردين عليه فيها وأمسك بزمامها بدء من سنة 1516[17].

وبعدها حاول عروج مد نفوذه لبقية المدن، فاستولى على مليانة والمدية ثم تنس، ول استولى على قلعة بني راشد، وترك فيها حامية تركية تقدر بحوالي 200 جندي [18] وعندما استنجد به أهل تلمسان، للتخلص من السلطان أبو حمو الثاني المغتصب لعرش ابن أخيه أحمد الثاني بدعم من الأسبان.

فوجد عروج في ذلك فرصة لتوسيع رقعة دولته الناشئة وزحف بقواته نحو تلمسان،

فواجهه أبو حمو الثاني الزياني على رأس جيشه للقائه، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبو حمو الزياني وفراره، فدخلت قوات عروج تلمسان، وأخرجت السلطان المسجون سجنه وأعلن عن ضم تلمسان إلى الجزائر[19]، ورغم هذا النصر كان عروج يدرك أن سيطرته على المدينة ستكون صعبة لبعدها عن الجزائر، ولهذا وضع الحامية السابق ذكرها بقلعة بني راشد على الطريق الرابط بين الجزائر وتلمسان.

بعدها توجهت أنظاره إلى وهران وشدد الحصار عليها، فأثر ذلك على الأسبان، مما جعلهم يتجاوبون مع استنجاد أبو حمو الثاني الفار من تلمسان بهم، فسارعوا في تقديم الدعم للسلطان الزياني، وأوعزوا إلى حاكم وهران دي قومريز – De Gomaréz – بتجهيز حملة ضد تلمسان من أجل استعادتها لحليفهم، فبدأ بقلعة بني راشد خاصة وأن الطريق بينها وبين تلمسان تعد سهلة وقريبة نوعا ما، وهي التي تحمي ظَهر عروج، وبذلك قطعوا منبع المدد القادم منها لعروج وجنده، وأمنوا ظهرهم كذلك، وفرض عليها حصار انتهى بتقتيل الحامية العثمانية بالقلعة، ثم تم الزحف على تلمسان من طرف القوات الأسبانية وأبو حمو ومناصريه، فلما رأى أهل تلمسان ذلك تخلوا عن عُروج وفتحوا أبواب المدينة للغزاة فدخلوها، أما عروج ومن معه فقد احتموا بقلعة المشوار وكانوا حوالي 1500 رجل تقريبا، ودافعوا ببسالة عن جدران تلمسان ما يقرب 26 يوما، إلى أن انته ما عندهم من مئونة غذائية وعسكرية ووافق ذلك يوم العيد الصغير– عيد الفطر–، فقرر عروج الانسحاب في الساعات الأولى من الليل، وفي وادي المالح قرب جبل بني موسى غرب عين تموشنت نشبت معركة ضارية بين عروج ومطارديه من الأسبان انتهت باستشهاد عروج ومن معه من الجنود في شهر ماي 1518م، ولقد قام الأسبان بزج رأسه وحمله إلى اسبانيا والطواف به في شوارع مدنهم الرئيسية[20].

وهكذا فأن العمل الذي قام به عروج يعد مرحلة ممهدة للاستقرار العثماني بالجزائر، خاصة وأنه ركز أقدامهم في بعض المدن الساحلية خاصة جيجل والجزائر، اللتان ستشكلان قاعدة انطلاق وحماية للجنود الأتراك الذين استقروا بالجزائر، وعلى الرغم من أن استشهاد عروج يعد خسارة كبيرة للأتراك، إلا أنه أعطى الفرصة لبروز أخيه خير الدين.

3- تولي خير الدين قيادة الأتراك وتثبيت الوجود العثماني بالجزائر:

كان استشهاد عروج قد صدم خير الدين، لأنه وجد نفسه في موقف صعب للغاية نتيجة تشابك الظروف وعدم استقرار الأوضاع، حيث كان يخشى ثورة المناطق المجاورة للجزائر – المدينة – عليه، خاصة قبيلة سالم التومي التي كانت تتحين الفرصة المناسبة للانتقام من العثمانيين بطردهم عن الجزائر.

ونتيجة لهذه الحالة ظهر لخير الدين أن يجمع طائفة من أعيان مدينة الجزائر وأهل الرأي والمشورة، وأخبرهم بعزمه على الارتحال من بلدهم والعودة إلى الإسفار في البحر، فأبى عليه أهل الجزائر ما قصد من فراقهم، فعرض عليهم فكرة إلحاق الجزائر بالسلطنة العثمانية للتَقوي بها والالتجاء إليها عند الحاجة، فأرسل خير الدين سفيرا في هذا الشأن إلى الأستانة فرضي السلطان سليم الأول بضم الجزائر إلى مملكته وجعل خير الدين حاكما عليها وأمده بجند فيه عدة آلاف من رجال الحرب[21].

وأول ما واجهه هو طلب أعضاء مجلس الدفاع تبعيته ملكا على الجزائر لكن خير الدين رفض هذا الطلب، لأنه أدرك أن هذا سيجعله تحت ضغط هؤلاء الأعضاء في المجلس، فتصرف بدهاء وذكاء، حتى يتمكن من وضع الخيارات في يده، ويتصرف وفق ما يراه مناسبا للوضع الذي هو فيه، وإثر إلحاح أهل الجزائر ألحوا عليه بضرورة البقاء، خاصة أعضاء مجلس المدينة وأعيانها وعلى رأسهم المفتي تقرر ما يلي:

– بقاء خير الدين ليس مطلبا ينحصر في أعضاء مجلس الأعيان بل هو مطلب جماهيري.

– ذهاب خير الدين يعتبر تقصيرا في الواجب وتخليا عن المسؤولية وعدم مراعاة شعور مواطنين هم في أمس الحاجة إلى بقائه.

– اعتبار خير الدين ابن الجزائر وليس لها غيره ولذلك فمصلحة الجزائر قبل مصلحة اسطنبول.

– بقاء خير الدين في الجزائر واجب يمليه عليه الشرع[22].

هكذا إذن قاد التصرف الذكي لخير الدين لإظهار مدى تمسك أهل مدينة الجزائر به

قائدا ومدافعا عن مدينتهم من جهة، واستجابتهم للشروط والخطوات التي طلب منهم القيام بها من جهة أخرى، وأهمها الارتباط بالدولة العثمانية، لشعوره بضرورة بقاءه في خدمة السلطان العثماني، ولإدراكه بحجم المخاطر المحدقة بالجزائر من مختلف الجهات، حيث كانت العديد من القوى تتحين الفرص للانقضاض عل الجزائر.

وبالفعل فقد بينت الحوادث والظروف التي وجهها خير الدين بعد وفاة أخيه عروج بأنه صار في وضع لا يحسد عليه، إذ كان أهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل في كوكو الذي بقي على ولائه لصاحب تلمسان المخلوع يسعون جميعهم للإفلات من قبضة القراصنة، فألهمت خير الدين عبقريته بربط مصيره بمصير الإمبراطورية العثمانية، ولو اعتمد على نفسه فقط لخر تحت ضربات أعدائه الكثيرين أما إذا دعم نفسه بالباب العالي فإنه يحظى بمكانة مرموقة ويتمتع بسند عسكري ومالي من شأنه أن يعينه على تحقيق مطامحه الكبرى، لذلك لم يتوان في التعبير عن ولائه للسلطان سليم الأول الذي منحه لقب الباشا وعينه أمير الأمراء (بيلر باي)، بل إن القسطنطنية مدته بألفي رجل مجهزين بالمدافع ثم أوفدت إليه أربعة آلاف من المتطوعين ممن يتمتعون بامتيازات الانكشارية[23].

كان هذا العرض مفاجئة سارة للسلطان سليم الذي لم يتردد في قبولها لأنه يضع تحت تصرفه دون عناء أو كلفة كبيرة شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وامتن كثيرا لاتصال خير الدين به فأرسل إليه بعض المعدات العسكرية فضلا عن ذلك أرسل إليه براية الإمارة وألفين أو ثلاثة من العساكر وأصدر فرمان يقضي بإرسال الجنود اللازمة إليه من الأناضول[24].

وهكذا فقد أصبح إقليم الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا تحت السيادة العثمانية، نتيجة حماية السلطان سليم الأول الرسمية للجزائر، فتعزز نفوذ خير الدين وقوي موقفه ضد الأسبان من جهة والقوى المتسابقة على استعاد نفوذها المفقود خاصة بني زيان والحفصيين من جهة أخرى، وهكذا تكونت إيالة الجزائر تحت إمارة خير الدين وبمباركة السلطان العثماني الذي منحه لقب الباشا وأمير البحر وأجزل له في المنح، فارتبط مصيرها بها وتعاون أهل البلاد مع القادة الجدد فاعترفوا بالسلطان حاميا لهم واعترف هو بالسلطة

المحلية الناشئة وتعاون الجميع على بناء الدولة وطرد الحاميات الإسبانية.

وبلغ هذا المدد خير الدين في الوقت المناسب لمواجهة أخطار كبيرة، من ذلك مؤامرة دبرها سكان مدينة الجزائر وعدد من القبائل أغرقها في الدماء، وهجمة اسبانية جديدة بقيادة هيقو دي مونكدا– Moncada – كان مآلها الخسران الفادح سنة 1519م، بفعل التحصينات غير رغم هذا الانتصار إلا أن خير الدين واجه قوة عسكرية من قبل رجال القبائل العربية والبربرية، فسلاطين تونس وهم آخر العائلة الحفصية كانوا يحكمون أجزاء من مقاطعة الجهة الشرقية، فوقع تحالف بينهم أدت لإلحاق الهزيمة بخير الدين من طرف رجال قبائل إمارة كوكو حيث سيطر ابن القاضي على الجزائر وأجبر الأتراك على الخروج منها والاعتصام بجيجل خلال السنوات 1520 – 1525[25].

كانت الظروف التي خلف فيها خير الدين عروج، تتمثل في أن الجزائر صارت محل طمع لدى العديد من الأطراف من حفصيين وزيانيين وأسبان، وحتى من دويلات المغرب الأقصى، زيادة عن القوى الأوروبية وبعض القوى المحلية، وأمام هذا الواقع كان على خير الدين السير على نفس خطى أخاه عروج، مستغلا خبرته ودرايته فتحمل المسؤولية بحزم.

وخلال تلك الفترة التي ترك فيها خير الدين الجزائر والتي قدرها البعض بسبع سنوات، أقامت جيوش ابن القاضي في مدينة الجزائر، وبدأوا يرتكبون الأخطاء ويثيرون الفوضى في اغتصاب الغنائم وغيرها، وبدأ السكان يشعرون بالأسف على فراق خير الدين[26].

وبالمقابل فإن خير الدين استغل تلك المدة في إعادة بناء قواته من جديد في منطقة نفوذه، فعاد للبحر ثانية للغنم من سفن أعدائه المارة هناك، وسيطر على القل سنة 1521، ثم عنابة 1522، وقسنطينة، وتحالف مع شيخ بني عباس عدو ابن القاضي،وعاد إلى مدينة الجزائر مدعما بقوة حليفه، وفي سنة 1525 نزل بدلس، ومنها إلى وادي سيبو، وخاض معركة مع القبائل انتصر فيها، مما أدى إلى اغتيال ابن القاضي من طرف أتباعه، وتفرقت

جموعه، فسهل ذلك رجوع خير الدين لمدينة الجزائر[27].

وبعد أن تمكن خير الدين من استرداد مدينة الجزائر وتطهيرها من المناوئين له، اتجه نظره صوب قلعة البنيون الرابضة قبالة المدينة تراقبها وتعسها، وتسخرها لخدمة الأسبان، فكان من الضرورة لخير الدين إزاحة هذه الشوكة الجاثمة على صدر هذه المدينة.

ولما عزم خير الدين على فتحه لم يجد من البارود ما يقوم بذلك ، فجلب ذلك من جربة، واشترى المدافع الكافية بضرب الحصن، ثم حصره بالمدافع وبدأ في ضربه، فبدأ رد من في الحصن، ثم ركب بعض الجند القوارب وهجموا على الحصن من كل ناحية فتم لهم الاستيلاء عليه والقضاء على من فيه وأخذ الغنائم من أسرى ومدافع، وتم هدم الحصن في ماي 1529[28].

بعدها تفرغ خير الدين لتنظيم دولته من النواحي الإدارية والعسكرية، والاجتماعية والاقتصادية مستعينا بخبرته، ومساعدة الأعيان ورجاله، فاتخذ مدينة الجزائر مركزا للحكومة، وعاصمة سياسية واقتصادية بفضل موقعها الهام، وهي جديرة بذلك لأنها مرسى في وسط القطر المسمى عليها، وموقعها الجغرافي كفيل لها بالرئاسة وبالأولوية على غيرها من البلدان، وهذا ما سيجعلها تكتسب مكانة بين الدول التي تتعامل مع بعضها في حوض البحر المتوسط، حيث اكتسبت الجزائر الهيبة والمناعة والقوة التي جعلتها تفرض على الغير تقدير الدور الذي تقوم به، وجعلها بداية من عهد خير الدين مهابة الجانب، وبذلك أصبحت جبهة متقدمة في الصراع بين الشرق والغرب.

4- الخاتمة:

يمكننا تلخيص جهود خير الدين بعد أن استطاع القيام بعدد من الخطوات مهدت لتكوين نواة لدولة ناشئة منطلقها ومركزها مدينة الجزائر، وستتسع شيئا فشيئا على العهود اللاحقة لتشمل كل القطر الجزائري.

فخير الدين قد اهتم بالجيش وشكل منه قوة دفاعية بحرية بالدرجة الأولى، وكذلك له سندا من الجيش البري استطاع فيه المزج – ولو لمرحلة- بين من كان معه من الأتراك

والمتطوعين من الأهالي والأندلسيين، ولقد أظهر هذا الجيش قدرات دفاعية كبيرة، أبرزت مدى التطور والتقدم الذي حازه، مما مكنه من التصدي للعديد من الحملات التي شنت على الجزائر من مختلف الجهات، وأقام التحصينات حول المدن التي أصبحت تابعة له، كما أن عمل من أجل القضاء على مختلف التمردات التي واجهته داخليا، وتصدى للحملات الخارجية التي كانت من اسبانيا تستهدف مدينة الجزائر وقوتها الناشئة، وعمل على التخلص من الأسبان وتمكن من ذلك بإبعادهم من حصن البنيون سنة 1529.

أخذ خير الدين يتوسع على حساب الدولتين المجاورتين: دولة بني زيان غربا، وبني حفص شرقا، فقاد حملة على تلمسان كسب من خلالها اعتراف تلمسان بسيادة الجزائر عليها، والإبقاء على حامية بها.

بعد أن أكمل خير الدين هذه الجهود السابق ذكرها أضف لها تحقيقه انتصارا بحريا أنذر من خلاله الأسبان بأن الجزائر صارت تمتلك أسطولا بإمكانه مهاجمتهم حتى في عقر دارهم، وذلك من خلال مهاجمته جزر البليار وذلك سنة 1530.

وبعد هذه الجهود استنجد السلطان العثماني سليمان القانوني بخير الدين ليعينه على رأس الأسطول العثماني فغادر خير الدين الجزائر وترك خلفا له حسن أغا وذلك سنة 1533.

فجهود خير الدين حددت للجزائر ولو بصفة مؤقتة حدودها الجغرافية وإطارها السكاني البشري، وأعطتها القوة الدفاعية التي تستطيع من خلالها صد أعدائها، وأكسبتها هيبة ستجعلها في منعة تمكنها من مواجهة من يريد السيطرة عليها.

- الهوامش:

1- مؤلف مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تحقيق وتقديم: عبد الله حمادي، الجزائر، دار القصبة، 2009، ص5.

- وهناك رواية أخرى تذكر أنه ولد سنة 1474م، أي بعد عام من ولادة أخيه عروج، فهو الابن الثالث من أبناء الجندي العثماني يعقوب بن يوسف الألباني المرابط بجزيرة مدللي عندما انتزعها السلطان محمد الثاني العثماني من ايطاليا سنة 862هـ / 1457م، وعندما بقي يعقوب في تلط الجزيرة مدة طويلة طلبوا من رئيسهم أن يكاتب السلطان ويلتمس من الإذن في نكاح بنات أهل الذمة المقيمات بالجزيرة فأجابهم

بالموافقة فمن أراد أن يتزوج من العسكر فليتزوج بمن شاء ومن أبى من أهل الذمة يجبر على ذلك، وبناء على ذلك فقد تزوج يعقوب من امرأة اختلفت الكتابات في نسبها فقيل بأنها مسيحية لأنها من بنات أهل الذمة إلا أن الزواج تم بإذن السلطان وفق الشريعة الإسلامية، ومن المؤرخين من يقول بأنها كانت سيدة مسلمة أندلسية كما ذكرنا أعلاه.

– وهنالك من يذكر بأن خضر ولد سنة 871 هـ الموافق 1466م ، انظر: عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط1، لبنان، دار النهضة العربية، 1989، ص 26.

– بالنسبة لوفاته يذكر الدكتور مولاي بلحميسي بأنه توفي سنة 1546م وعمره بين 60 و70سنةأو80 سنة، وهناك من يقر بأن عمره عند وفاته كان 80 سنة قضى منها 30سنة وهو على رأس مملكة الجزائر الجديدة، وهناك من يذكر بأنه وافاه الأجل في استانبول سنة 1543م/950هـ ، وفي رواية أخرى في 4 جويلية 1545م، وهناك سنة 1546، ورواية أخرى ذكرت سنة 1548م وكان عمره حينها 63 سنة.أما سامح التر، فيذكر أنه توفي عن عمر يناهز 82 سنة .

انظر: سامح التر، المرجع السابق، ص28.

2 - H.D. de Grammont, « Le Nom de Barberousse , dérive-t-il de baba –aroudj »,Revue Africaine, V29, Année1885, p226.

وكذلك:

– فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي– دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص529.

وأيضا:

– أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792، ط1، الجزائر، دار البصائر، 2007، ص142. ويذكر توفيق المدني أن بعض الروايات ، تذكر أن أم الأخوة بربروس هي سيدة أندلسية. وهو أمر يبدو أنه مستبعدا نوعا ما.

– وجاء في كتاب سيرة المجاهد خير الدين بربروس، ص6، أن زوجة يعقوب هي: « امرأة مسيحية يقال لها –Catherine– كاترين–... وقد تزوج معها في مدينة بونافا – Bonava – وكانت آنذاك أرملة لأحد القساوسة اليونانيين»، ونعتقد أن هذا هو الرأي الأرجح في أصل أم خير الدين.

3– أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ، ص144.

4– شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي، البشير بن سلامة، ط3، تونس، الدار التونسية للنشر، ج2، 1985، ص326.

5– كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510–1541، تر: جمال حمادنة، الجزائر،

ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص24.

6- قيل هو الذي يجعل الراء غينا أو لاما، أو يجعل الصاد فاء، وقيل هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى الثاء، وقيل هو الذي لا يتم رفع لسانه في الكلام وفيه ثقل أي ثقل اللسان بالكلام اللثغة، للمزيد انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج8، ص448. وكذلك: المنجد في اللغة، ط2، بيروت، دار المشرق، 1969، ص24.

7- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، 1972، ص128.

8- جون.ب.وولف، الجزائر وأوروبا 1500 – 1830، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص – ص 35-36.

9- عزيز سامح الترّ، المرجع السابق، ص45.

10- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص-ص66-67

11- عزيز سامح الترّ، المرجع السابق، ص46.

12- منورقه جزيرة في البحر الأبيض المتوسط اسمها بالاسبانية – Minorca– وتتبع حاليا لاسبانيا وتقع بجوار جزيرة أخرى تسمى مايوركا، وهما ضمن جزر أرخبيل جزر البليار المتكون من خمس جزر هي: منورقه ، مايوركا، ويابسة أو ايبزا، وفرمنتيرة وقبريرة.

13- عزيز سامح الترّ، المرجع السابق، ص46.

14- نفس المرجع، ص195.

15- كوربين شوفالييه، المرجع السابق، ص20.

16-.نفسه، ص26.

17- شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص327..

18 -H.D. de Grammont, « Quel est le lieu de la mort d'aroudj barberousse ? »,Revue Africaine, V22, Année1878, p391.

19 -Ibidem

20 -H.D. de Grammont, Op.cit, pp393-395.

وكذلك:

- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط7، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية، ج2، 1994، ص223.

وأيضا:

- علي آجقو، المغرب الأوسط من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة، باتنة، منشورات باتنيت، 2002/2003، ص – ص 18-20.

21- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر ، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص64.

22- علي آجقو، المرجع السابق، ص29.

23- شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص – ص328-329.

24- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص- ص 105-106.

25- شارل أندري جوليان، المرجع السابق ، ص329.

26- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص46. وجاء ذكر المدة بسبع سنوات، انظر: نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص65.

27- شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص329.

28- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص143.

وكذلك:

Moulay Belhamissi, Alger La ville aux mille canons, Alger, Entreprise Nationale du livre ,1990,p13.